

مطبوعات المجمع

آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(٢)



العذب النمير

من مجالس الشنقيطي في التفسير

للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي
١٣٢٥ - ١٣٩٣

تحقيق
خالد بن عثمان السبت

إشراف
بكر بن عبد الله أبو زيد

المجلد الثاني

دار ابن حزم

دار عطاءات العلم

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: آية ٤٤]، فقوله: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ كقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٥]، كقوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤]، وكقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: آية ٨٢] أي: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لهم عقول وعلم يُظهر لهم ما ضَمَّنَّا في هذا القرآن من تصريفنا الآيات من غرائبنا، وعجائبنا، وبصائرنا، أي: أدلتنا القاطعة الواضحة التي لا تترك في الحق لبساً. وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٠٦، ١٠٧].

﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لمّا بين الله (جل وعلا) أنه أنزل علينا على لسان نبينا بصائر حيث قال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ والمعنى: جاءتكم من قِبَلنا على لسان نبينا بصائر، أي: حُجَج قاطعات، وأدلة واضحات، لا تترك في الحق لبساً. فهذه البصائر التي جاءتكم يلزمكم اتباعها، وعدم المَيْل والحَيْدة عنها؛ ولذا أتبع قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤]، بقوله: ﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهو تلك البصائر والبينات والحُجَج القاطعات التي أنزلها الله عليك، وهذه البصائر: هي هذا القرآن العظيم، وهو المأمور باتباعه في قوله: ﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهذا القرآن العظيم يجب علينا جميعاً أن نتّبعه، فنتأدب بآدابه، ونتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق، ونُحلّ حلاله،

ونُحَرم حرامه، ونعتقد عقائده، وننزجر [بوعيده]، وننبسط [لوعده][1]، ونتأسى بأمثاله، إلى غير ذلك من العمل به.

واعلموا أن هذا القرآن العظيم هو أعظم نعمة أعطاها الله لهذا الخلق الذي أنزله عليه، وقد بين (جل وعلا) أن إيراث هذا القرآن العظيم هو العلامة الوحيدة في الاصطفاء، فالله لا يورث هذا الكتاب إلا من اصطفاه من خلقه، حيث قال تعالى بعد أن نوّه بالقرآن والعمل به: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟﴾ إلى أن قال: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فبيَّن أن إيراث هذا الكتاب علامة للاصطفاء؛ ولذا قال: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ والجمهور من العلماء على أن الذين أُورثوا الكتاب الذين اصطفاهم الله بإيراث هذا الكتاب لا يختصُّون بحَمَلَة القرآن الذين يحفظونه، بل يشمل جميع الأمة الذين يعملون به، فيُحِلُّون حلاله، ويُحَرِّمون حرامه، ويعتقدون عقائده، إلى غير ذلك، وإن لم يكونوا يحفظونه[2]، وسواء وقع منهم تقصير؛ لأن الله لما بين إيراثه للكتاب، وأن إيراثه الكتاب علامة الاصطفاء، قسَّم هذه الأمة التي أورثها هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام، قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم نوّه بالقرآن العظيم فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ من الله عليهم. فصرحت الآية بأن إنزال القرآن، وإيراثنا إياه أعظم فضل وأكبره علينا؛ ولذا علّمنا الله أن نحمده على هذه النعمة الكبرى،

---

(١) في الأصل: «وننزجر بوعده، وننبسط لوعيده»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٢/ ١٣٣)، ابن كثير (٣/ ٥٥٤).

والفضل الأعظم، حيث قال في أول سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: آية ١] يعني لم يجعل فيه اعوجاجاً من جهة الألفاظ ولا المعاني، فألفاظه بليغة مستقيمة، [ومعانيه](١) كريمة جليلة، أخباره صدق، وأحكامه عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] يعني: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام. ثم قال (جل وعلا) وهو محل الشاهد: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني جميع الذين أُورثوا الكتاب، هذا القرآن العظيم، وعلى رأسهم الظالم لنفسه؛ لأنه أول من ذُكر، حيث قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم قال عن الجميع: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ ولم يبق غير الذين أُورثوا الكتاب بظالمهم، ومقتصدهم، وسابقهم إلا الكفرة الفجرة؛ ولذا قال بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: الآيات ٢٩ ـ ٣٦] وكان بعض العلماء يقول: حُقَّ لهذه (الواو) أن تُكتب بماء العينين(٢). يعني واو ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ لأنها حَكَمَت بدخول الجميع في الجنة، وعلى رأسهم الظالم لنفسه.

وأصح التفسيرات في (الظالم)، و(المقتصد)، و(السابق)(٣):

(١) في الأصل: ومعناه.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٣) انظر: ابن جرير (٢٢/ ١٣٣)، ابن كثير (٣/ ٥٥٤).

أن الظالم: هو الذي يطيع مرة ويعصي أُخرى، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: آية ١٠٢].

والمقتصد: هو الذي يأتي بالواجبات، ويترك المحرمات، ولا يتقرب بالنوافل.

والسابق بالخيرات: هو الذي يأتي بالواجبات، ويتقي المحرمات، ويتقرب إلى الله بالنوافل، تقرباً إليه بغير الواجبات.

وكان بعض العلماء يقول: ما الحكمة في تقديم الظالم في آية فاطر هذه، والظالم إذا كان في هذا الوعد الكريم بدخول الجنة ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ فمن أين له أن يُقَدَّم فيقدمه الله بالذكر على المقتصد والسابق؟

للعلماء عن هذا أجوبةٌ معروفة(١):

منها: أن بعضهم قال: هذا المقام أظهر الله فيه كرمه وتعظيم هذا القرآن العظيم، وقوّة آثاره على من أورثهم إياه بدخول الجنة؛ ولذا بدأ بالظالم لئلا يقنط، وأخّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص: آية ٢٤] ولما كان أكثر أهل الجنة الظالمين لأنفسهم بدأ بهم لشأن الكثرة.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

كذا قالوا والله ــ تعالى ــ أعلم؛ ولذا لما نوّه بهذه البصائر التي هي النعمة العظيمة ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤] أمر باتباعها وقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهذا الذي أُوحي إليك من ربّك هو تلك البصائر، أي: الحُجج القاطعات، والأدلة الساطعات الواضحات، التي لا تترك في الحق لبساً، التي صرّفها الله في هذا القرآن العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٠٥]، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: آية ٨٩]، وهذا معنى قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦].

وهذه الآية نص بأن الذي يجب اتباعه هو الوحي، وهو القرآن العظيم، فلا يجوز اتباع غيره، فمن اتبع تشريعاً غيره فَرَبُّه من اتبع تشريعه، كما بيناه مراراً[(١)]، وكما سيأتي إيضاحه مراراً في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام[(٢)]؛ لأن التشريع إنما هو لخالق السماوات والأرض، كما أنه لا شريك له في عبادته: كذلك لا شريك له في حكمه؛ ولذا قال تعالى في العبادة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: آية ١١٠]، وقال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦] وفي قراءة ابن عامر: ﴿وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾[(٣)] فالحكم لله وحده، كما أن العبادة له وحده، فهو المعبود وحده (جل وعلا)،

---

(١) ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) والآية (٩٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ما سيأتي عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (١٥٨) من سورة الأعراف، والآيتين (٢٨، ٣١) من سورة التوبة.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران، ص ٢٧٧.

فيجب توحيده في العبادة، وهو الحاكم وحده (جل وعلا)، فالحكم له وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧] لأن الحكم لا يكون إلا لمن هو أعلى من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢] لأن العلي الكبير الذي هو متصف بغاية العلو والكبر والعظم هو الذي له أن يأمر وينهى، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وليس لأحد البتة تشريع مع الله، فكل من اتبع تشريعاً وضعياً سواء سمّاه نظاماً، أو قانوناً، أو دستوراً من التشاريع الوضعية التي وضعها إبليس على ألسنة أوليائه من الكفرة: فَرَبُّه ذلك الذي اتبع تشريعه، وهو كافر بالله كفراً بواحاً مخرجاً عن الملة. والله بيّن هذا في آيات كثيرة؛ لأن التشريع لا يمكن إلا أن يكون للسلطة العليا الحاكمة، التي لا يمكن أن تكون فوقها سلطة، وهي سلطة خالق السماوات والأرض، فهو الآمر الناهي، فالأمر أمره، والنهي نهيه، والدين ما شرع، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم، ومن أراد أن يتبع تحليلاً وتشريعاً لغيره فقد اتخذ غيره رباً، وهو مشرك بخالق السماوات والأرض؛ لأن الشرك به في حكمه كالشرك به في عبادته؛ ولذا سيأتيكم في هذه السورة الكريمة ــ سورة الأنعام ــ براهين قاطعة من هذه البصائر التي قال الله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤] موضحاً أن من اتبع تشريع الشيطان فقد اتخذ الشيطان رباً، وهو مشرك بالله شركاً أكبر مخرجاً عن دين الإسلام[١]؛ ذلك أن إبليس اللعين لما قال لتلامذته

(١) انظر: الإحالات السابقة.

من كفار مكة: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ قال لهم: الله قتلها. قالوا: إذاً هي ذبيحة الله، وأنتم تقولون: هي ميتة نجسة، فما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المُذكى ـ تقولون: حلال طيب مستلذ!! وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون: حرام ميتة نجس، فأنتم إذاً أحسن من الله!! فأنزل الله ـ بإطباق العلماء[1] ـ فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني: الميتة. أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: الأكل من الميتة ﴿لَفِسْقٌ﴾ وخروج عن طاعة الله. ثم قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي: وإن أطعتموهم في أن الميتة حلال في تشريع الشيطان؛ لأن الصحابة والكفار اختلفوا في لحم الميتة، فقال الصحابة: حرام بتشريع الله؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] وقال أتباع الشيطان في تشريع الشيطان: الميتة حلال؛ لأنها ذبيحة الله، فما ذبحه الله أحسن مما ذبحه البشر.

فهي قطعة لحم اختلف فيها شرع الله مع قانون الشيطان، فقال الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني: إن أطعتم الكفار، بأكل الميتة الذي أباحه قانون إبليس، ونظام الشيطان ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ بالله حيث أشركتم به في حكمه، وهو يقول: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦].

وهذا الشرك الذي حكم الله به في سورة الأنعام على من اتبع قانون الشيطان، ونظام إبليس، هو الذي يوبخ الله مرتكبيه يوم القيامة

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٧٨).

ـ في سورة (يس) ـ على رؤوس الأشهاد، ويبين مصيرهم النهائي، وذلك في قوله: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس: آية ٦٠] وقد أجمع العلماء أن عبادتهم للشيطان التي نهاهم عنها وعهد إليهم ألا يفعلوها إنما هي اتباع نظامه، وتشريعه، وقانونه، في سَنِّ المعاصي، والكفريات، والمنكرات، ثم قال: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ حيث عبدوه واتخذوا تشريعه ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ثم بين المصير النهائي لعَبَدة الشيطان، ومتبعي نظام إبليس: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس: الآيات ٦٠ ـ ٦٥] ولأجل هذا سمى الله تعالى الذين يُطاعون في المعصية: (شركاء) حيث قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] ولما سأل عدي بن حاتم النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال: ألم يحلوا لهم ما حرم الله؟ ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أرباباً[(١)].

فكل من يتبع نظام إبليس، وقانون الشيطان، فهو مشرك بالله في حكمه، والله يقول: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

آية ٢٦]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: آية ١٠]، ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢]، الحكم للعلي الكبير وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] يعني: لا معبود بالحق يُعبد إلا هو، فلا يجوز أن يُشرك بعبادته أحد، ولا أن يُشرك في حكمه أحد، سبحانه (جل وعلا) أن يكون له شريكٌ في عبادته، أو شريك في حكمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] بعض العلماء يقول: هذا الإعراض المأمور به عن المشركين في سورة الأنعام في مكة قبل الهجرة منسوخ بآية السيف[1]؛ لأن الإعراض زمن مكة، ولما جاء إلى المدينة أُذن له في القتال أولاً بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: آية ٣٩] ثم أُمر بقتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩٠] ثم أُمروا بالقتال العام في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

وبعض العلماء يقول: هذه الآية ليست منسوخة[2]؛ لأن المراد بالإعراض عن المشركين عدم الكلام معهم، وعدم سبابهم، وهذا أمرٌ قد يكون غير منسوخ. وهذا معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٦].

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٣٢)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ٣٥٥)، الإيضاح لمكي ص ٢٨٦.

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ٣٥٥)، الإيضاح لمكي ص ٢٨٦.

لأهله أي يكتسب لهم من الدنيا. والمراد بالاقتراف هنا: اكتساب المعاصي هذا معنى قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٤].

ذكر بعض أهل العلم[(١)] أن بعض الكفار طلبوا النبي ﷺ أن يتحاكم معهم إلى بعض الكهان، كما كانت عادة العرب إذا تنازعوا واختلفوا تحاكموا إلى بعض الكهنة ـ والعياذ بالله ـ فبين النبي ﷺ أن ربه أمره أن ينكر كل الإنكار على من يبتغي حَكَماً غير خالق السماوات والأرض الذي هو الحَكم العدل اللطيف الخبير قل: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام: آية ١١٤].

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(٢)] أن حروف العطف من (الفاء)، و (الواو)، و (ثم) إذا جاءت بعد همزة استفهام أن فيها وجهين معروفين للعلماء:

أحدهما: أن الهمزة تتعلق بجملة محذوفة، وأن الفاء عاطفة على الجملة المحذوفة، وعلى هذا فالتقدير يدل عليه المقام في

(١) سيأتي قريباً إن شاء الله.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة، وسيأتي عند الآية (١١٨) من الأنعام، وغير ذلك من المواضع.

الجملة، وعليه فالتقدير هنا: أَأَضِل عن سبيل الله فأبتغي حَكَماً غير الله؟

الوجه الثاني: أن همزة الاستفهام مُزحْلَقة عن محلها وهي مقدمة على حرف العطف لفظاً وهي بعده في الرتبة؛ لأن حرف الاستفهام له صدارة الكلام، وعليه فتكون الفاء عاطفة للجملة المُصَدَّرَة بالاستفهام على ما قبلها، وهذا معروف. والمعنى: قل لهم يا نبي الله ــ لأن النبي مأمور أن يقول هذا ــ أَأَضِل عن سواء الطريق فأبتغي حَكَماً غير الله؟ هذا لا يمكن أبداً.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ همزة إنكار، وهي تدل على إنكار الشيء وتشنيعه والتباعد منه.

والحَكَم: قال بعض العلماء[١]: الحَكَم عند العرب أفضل من الحاكم؛ لأن الحاكم هو الذي يُوقع الحُكم بين اثنين، قد يكون حُكْم عدل وقد يكون حُكْم جور، وأما الحَكَم لا تكاد العرب تطلقه إلاّ على الذي ينصف في حُكْمه، والمعنى: لا أطلب حَكَماً غير الله؛ لأن الله هو الحَكَم العدل اللطيف الخبير الذي هو الحاكم وحده (جل وعلا).

وفي إعراب (غير) و (حَكَماً) أوجه معروفة[٢]، قال بعض العلماء: (غير) مفعول مقدم لـ (أبتغي)، والمعنى: أبتغي غير الله. وعليه فقوله: ﴿حَكَمًا﴾ قيل: تمييز، وقيل: إنها حال، أبتغي غير الله في حال كونه حَكَماً. أي: مميزة لـ (غير).

---

(١) سيأتي قريباً إن شاء الله.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٩)، الدر المصون (٥/ ١٢٣).

وقال بعض العلماء: (حَكَماً) هي مفعول (أبتغي)، أبتغي حَكَماً. و (غير الله) في محل الحال. والمعروف في العربية أن نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً[١].

ومعنى الآية الكريمة: أن الله أمر نبيه أن ينكر غاية الإنكار ابتغاء حَكَم غير الله، فلا يُطلب ولا يُبتغى حَكَم إلاَّ خالق السموات والأرض.

وهذه الآية الكريمة تبين لنا أن الحاكم هو خالق هذا الكون، هو الحكم وحده (جل وعلا) لا محاكمة إلاَّ إليه، فالحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، لا حَكَم إلاَّ الله، ولا حُكم إلاَّ لله ــ كما قد بينا هذا مرارا[٢] ــ والله (جل وعلا) كما يتنزه أن يكون له ولد، ويتنزه عن أن يكون له شريك، كذلك يتنزه عن أن يكون حاكم معه أو مُشرِّع معه، كما في قوله في عبادته: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: آية ١١٠]، وكما قال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦] فحكمه كعبادته، العبادة له وحده، والحكم له وحده (جل وعلا)؛ لأن الله هو الذي له الحكم، وقد بين (جل وعلا) في سورة المؤمن أن الحكم لا يكون إلاَّ لمن هو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، فلا يكون إلاَّ لمن له سلطة عليا قاهرة حاكمة على كل شيء، وقد أشار الله

(١) انظر: النحو الوافي (٢/ ٤٠٢).

(٢) تحدث الشيخ ــ رحمه الله ــ عن موضوع الحاكمية في مواضع كثيرة من هذه الدروس، تقارب العشرة. وقد تقدم بعضها كما عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

لهذا في سورة المؤمن حيث قال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾، ثم قال: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢]، فمن لم يكن بهذه المثابة من العلو والكِبَر فهو ضعيف مخلوق محتاج محكوم عليه مأمور منهي، ليس له الحكم، قد بينا هذا مراراً، وعرَّفنا أنه يجب على سائر الناس أن يعرفوا أن الحكم لله وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: آية ٢٦]، وفي قراءة ابن عامر[١]: ﴿ولا تُشْرِكْ في حكمه أحداً﴾ بصيغة النهي، فالحكم له (جل وعلا) وحده، فهو الذي يحلل، وهو الذي يحرم، وهو الذي يُشرِّع، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فليس لأحد تشريع مع الله، وقد قدمنا مراراً[٢] أن الآيات القرآنية بكثرة دلت دلالة واضحة على أن كل من يُحَكِّم غير حكم الله ويتحاكم إلى غير شرع الله معتقداً أن ذلك بمثابة حكم الله أو أنه خير من حكم الله، كالذين يقولون: إن القرآن لا يصلح لهذا الزمن، ولا ينظم علاقات الدنيا بحسب التطور الحادث!! من يقول هذا ويدعيه فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة بإجماع المسلمين، وشهادة القرآن، وربه الذي جعله ربه هو الذي اتبع تشريعه؛ فإن التشريع ووضع النظام من حقوق الربوبية، وكل من اتبع نظام أحد فقد جعله رباً، والآيات القرآنية الدالة على هذا الموضوع لا تكاد أن تحصر في المصحف، وقد جاء موضحاً

(١) تقدمت عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

(٢) سيأتي عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأعراف.

كثيراً في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام ـ السورة العظيمة ـ لأن الله بين فيها أن المشركين لما جاءهم الشيطان وأوحى إلى كفرة قريش وحي الشياطين أن يقولوا للنبي ﷺ: الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ رجل تكون عنده الغنم فتصبح منها شاة ميتة، قالوا: من هو الذي قتل هذه الشاة؟ فقال لهم: الله قتلها. فقالوا: كيف تقولون: إنها ميتة جيفة مستقذرة وهي ذبيحة الله؟ ما ذبحتموه بأيديكم تقولون: حلال مستلذ طيب، وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون: جيفة ميتة حرام مستقذر!! فأنتم إذاً أحسن من الله!! فأنزل الله (جل وعلا) في ذلك ـ بإجماع المفسرين[1] ـ هذه الآية الآتية عن قرب من سورة الأنعام، وهي قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١]، يعني: لا تأكلوا الميتة وإن زعموا أنها ذبيحة الله، وأنه ذبحها بيده الكريمة بسكين من ذهب. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن أكل الميتة لفسق، أي: خروج عن طاعة الله. ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢١]، إن أطعتم أتباع إبليس في قانون إبليس ونظام إبليس أن الميتة حلال، وأنها ذبيحة الله، وأن ذبيحة الله أحسن من ذبيحتكم، إن اتبعتم في هذا النظام الإبليسي والقانون الشيطاني الذي يبيح الميتة التي حرمها الله على لسان سيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إن اتبعتم في هذا النظام الإبليسي، والتشريع الشيطاني إنكم لمشركون، فالله صرح بأن من اتبع نظام إبليس في تحليل مضغة من لحم هي لحم

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

الميتة حرمها الله على لسان نبيه، صرح الله بأنه مشرك حيث قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وهذا شرك ربوبية حيث اتبعتم تشريع الشيطان، والتشريع من خصوص الربوبية، فقد جعلتم الشيطان هو ربكم ـ والعياذ بالله ـ وهؤلاء الذين يتبعون تشريع إبليس وقانون الشيطان ونظامه الذي يشرع على ألسنة أوليائه من الكفرة الفجرة، هم الذين يوبخهم الله يوم القيامة في السورة الكريمة سورة يس، ويبين مصيرهم كما بينه في قوله: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يعني: ألم أوصكم في دار الدنيا أن لا تعبدوا الشيطان؟ وعبادة الشيطان الذي عهد إليهم فيها: ألاَّ يتبعوا نظامه وقانونه في تحليل المعاصي والكفر ـ والعياذ بالله ـ ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ واتبعوا تشريعي الذي أنزلته على ألسنة أنبيائي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾. ثم بين للذين اتبعوا طرق الشيطان ونظامه وشرعه فاتبعوا المعاصي والكفر في تحليل الشيطان وتزيينه، قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ثم بين المصير النهائي لمتبعي نظام الشيطان وتشريع إبليس بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠ ـ ٦٥]، ولذا قال نبي الله إبراهيم الخليل ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: آية ٤٤]، يعني: لا تعبد الشيطان، لا تتبع النظام الذي يزينه لك ويزخرفه من زخرف القول غروراً، من عبادة الأوثان،

والكفر بالله والمعاصي ـ والعياذ بالله ـ وقد قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلاَّ شيطاناً، وعبادتهم للشيطان هي اتباعهم ما يشرع لهم ويحلل لهم ـ والعياذ الله ـ وقد سمى الله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ سمى الذين يطاعون في معصية الله سماهم شركاء لله حيث أُطيعوا في معصيته؛ وذلك في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم شركاء لما قالوا لهم: اقتلوا أولادكم فقتلوهم. وقد ثبت عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: آية ٣١]، قال: يا نبي الله كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال: ألم يُحلوا لهم ما حرم الله ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أرباباً[1]. وقد أوضح الله (جل وعلا) في السورة الكريمة ـ سورة النساء ـ أن الذي يدعي الإيمان ويُحكِّم شرعاً غير شرع الله أن دعواه الإيمان إنها بالغة من الكفر والكذب والفجور ما يمكن التعجب منها، وذلك في قوله مُعجِّباً نبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠] يضلهم ضلالاً بعيداً عن طريق الصواب الذي شرَّعها خالق الكون على لسان سيد الخلق، يضلهم ضلالاً بعيداً ليتبعوا تشريع

(١) السابق.

إبليس ونظام الشيطان الذي شرَّعه على ألسنة أوليائه الكفرة الفجرة ــ والعياذ بالله ــ فهذه الآيات وأمثالها تُعْلمنا أن التشريع من خصائص الربوبية، وأن الأمر والنهي والتحليل والتحريم لا يكون إلاَّ لمن له السلطة العليا التي هي فوق كل شيء، وهي سلطة خالق هذا الكون (جل وعلا) فهذا الكون له مدبر هو الذي رفع هذه السماوات ونصب هذه الأرض، ووضع هذه الجبال، وصبغها بألوان مختلفة، وفتح هذه العيون في أوجهكم، وصبغ بعض عيونكم بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وجعل لكم في أجوافكم الكبد والرئة والكليتين والطحال، ووضع كُلاًّ في موضعه، ووكَّله بوظيفته البدنية، ولو شُرِّح عضو واحد من أعضاء الإنسان لاطُّلع فيه من غرائب صنع الله وعجائبه على ما يبهر العقول، وهذا الذي فعل في كل واحد منكم فعله فيكم وأنتم في بطون أمهاتكم لم يحتج أن يبنج أمهاتكم، ولا أن يشق بطونها حتى يعمل هذه العمليات فيكم، بل عملها وبصره نافذ، وعلمه محيط ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [الزمر: آية ٦] هذا الذي رفع السماوات ودحا الأرضين والبحار، وخلق الآدميين وأودع فيهم من غرائب صنعه وعجائبه(١)، هذا هو الرب، وهو المعبود، وهو المشرع،

(١) تحدث الشيخ ــ رحمه الله ــ في مواضع كثيرة من هذه الدروس عن عجيب صنع الله وخلقه في الإنسان وغيره، انظر على سبيل المثال ما تقدم عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.

وهو الحاكم، فالحلال ما أحله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، فمن تمرد على نظامه وجاء بنظام الشيطان وإبليس فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤﴾ [يس: آيتان ٦٣، ٦٤].

قرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا حفصاً، وابن عامر: ﴿مُنْزَلٌ من ربك بالحق﴾ بصيغة اسم مفعول (أَنْزَل). وقرأه حفص عن عاصم، وابن عامر ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بصيغة اسم المفعول من (نَزَّله) مُضَعَّفاً[1].

كان كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: احْتكِم معنا إلى علماء اليهود والنصارىٰ، الذين عندهم بقية علم من التوراة والإنجيل، ليخبرونا أأنت رسول حقاً أم لا[2].

وقال بعضهم[3]: قالوا له: نحن وأنت اختلفنا فلنتحاكم إلى بعض الكهنة. فبين الله جل وعلا ــ أَمَرَ نبيه أن يبين ــ أنه لا يبتغي حَكَماً غير الحَكَم العدل، خالق السماوات والأرض، الذي أنزل هذا الكتاب وفصَّله. وأهل الكتاب الذين تريدون أن نتحاكم معكم إليهم يعلمون أن هذا الكتاب حق، وأنه منزّل من الله، وأن النبي ﷺ

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠١.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٨ ــ ٢٠٩)، ولم أقف على ذلك في غيره.

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٨ ــ ٢٠٩)، ولم أقف على ذلك في غيره.

رسول حقاً. كما أُخذ عليهم بذلك العهد في كتبهم، كما قدمناه مراراً.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٦] وقد أخذ الله العهد على جميع الرسل، وعلى أممهم أن من أدرك [منهم][1] النبي ﷺ أن يؤمن به ويصدقه، كما قدمنا بيانه في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: آية ٨١] ومعنى الآية الكريمة: قل لهم يا نبي الله: أأضل عن سواء الطريق ضلالاً بعيداً في الحكومة فأبتغي حَكَماً غير الله؟! لا يكون ذلك مني أبداً.

قال بعض العلماء: والحَكَم: أعظم من الحاكم؛ لأن الحَكَم لا تكاد العرب تطلقه إلا على من هو معروف بالإنصاف والعدالة في حكومته، أما الحاكم فيطلق على كل من يحكم، سواءً حكم بجور أم بحق[2].

والهمزة للإنكار. أي: لا أبتغي حَكَماً غير الله. وقد قدمنا بعض الكلام في الليلة الماضية على بعض هذه الآية وأوضحنا إعراب (غير) و (حَكَماً).

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي: لا يكون ذلك؛ لأن الهمزة إنكار، بمعنى النفي[3]. أي: وهو الذي أنزل، الحَكَمُ الذي

---

(١) في الأصل: «أن منهم من أدرك النبي».

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ٧٠)، البحر المحيط (٤/ ٢٠٩)، الدر المصون (٥/ ١٢٣).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٩).

لا أبتغي حَكَماً سواه هو الله الذي أنزل إليكم على لساني هذا الكتاب ـ القرآن العظيم ـ الذي جمع الله فيه ثمرات الكتب المنزلة، وجمع فيه علوم الأولين والآخرين.

وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ أي: موضحاً مبيناً، آياته توضح فيها العقائد، والحلال والحرام، والأمثال، والمواعظ، والآداب، والمكارم؛ لأنه في غاية الإيضاح والتفصيل، والذي فصَّله هو الحكيم الخبير ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: آية ١].

وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ حال من ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾[1] أي: أنزله إليكم في حال كونه مُفصَّلاً، أي: موضَّحاً مبيناً فيه العقائد، مُبيناً فيه الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، وما يقرِّب إلى الله، وما يوصل إلى جنته، وما يُبعد من الله ويسخطه، ويوصل إلى ناره، وبين مصير الفريقين، وما أعدَّ لأوليائه، وما أعدَّ لأعدائه، كل هذا موضح مفصل في القرآن، وإن كان في القرآن بعض الآيات المتشابهات، فإنها تُرد إلى المحكمات، ويُعرف إيضاحها بردها إلى المحكمات.

كما قدمنا في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: آية ٧].

يعني: أن المحكمات هن أم الكتاب التي يُرَدُّ إليها ما أشكل من متشابهاته. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٤] التفصيل: ضد الإجمال، وهو الإيضاح

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٠٩)، الدر المصون (٥/ ١٢٣).

والبيان[١]. وقول من قال: ﴿مُفَصَّلًا﴾ أي: بيْنَه فتَرَات وفَصْل؛ لأنه ينزل أنجماً مُنَجَّماً. هو غير الصواب، والتحقيق: أن معنى قوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾: أنه مُبَيَّن مُوَضَّح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، ومصير أهل الجنة، ومصير أهل النار، وكل شيء يحتاج إليه الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: آية ٨٩] فالقرآن فيه تبيان كل شيء، ولكن الناس [كل منهم][٢] يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفهم، فهو بحر، وكل يغرف منه بحسب ما عنده، كما بينه حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه)، كما ثبت عنه في صحيح البخاري[٣]: أنه لما سأله أبو جحيفة: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ أجاب علي (رضي الله عنه): لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة. قال: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر. ومحل الشاهد من الحديث: قول علي (رضي الله عنه): «إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتاب الله» فهو يدل على أن من أعطاه الله فهماً في كتاب الله فَهِمَ علوماً خصه الله بها لم تكن عند أحد؛ لأن القرآن يتضمن جميع الأشياء، والناس في فهمه بحسب ما أعطاهم الله من المواهب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ ﴿آتَيْنَاهُمُ﴾ معناه: أعطيناهم

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٣٩٦)، (١٢/٦٠)، البحر المحيط (٤/٢٠٩).

(٢) في الأصل: كلهم.

(٣) تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد بالكتاب: جنس الكتاب الصادق بالتوراة والإنجيل، وصيغة الجمع في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ للتعظيم. والمعنى: والإسرائيليون والنصارى الذين أعطيناهم علماً من علم التوراة والإنجيل يعلمون أن هذا القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أن الله نزله عليك في حال كونه متلبساً بالحّق؛ لأن كل ما فيه حق، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهىٰ إلا عن شر، ولا يخبر إلا بصدق، إلى غير ذلك من أمور أحقيته.

ومعنى الآية: علماء اليهود والنصارىٰ الذين تطلبون أن نتحاكم إليهم هم يعلمون أن هذا الكتاب الذي أنزله الله عليّ حق، وأني رسول الله، ولأنهم يعلمون أن الكتاب حق [وأنه][1] ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه في محل حال. أي: في حال كونه متلبساً بالحق[2]، والحق: ضد الباطل. ومعناه: أن هذا القرآن لا باطل فيه، كله حق، وكله هدىٰ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: آية ٣٢] كما يأتي إيضاحه في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] وهذا معنى قوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٤] (الفاء) كأنها سببية. أي: يتسبب عن كون هذا القرآن حقاً لا شك فيه ألا يمتري أحدٌ فيه.

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة لربط أجزاء الكلام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ١٢٤).

وقوله: ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ هو جمع الممتري. والممتري: اسم فاعل امترى، يمتري، فهو ممتري: إذا كان شاكّاً[(١)]. وأصله: (ممتريُ) من المِرْيَة، والمِرْيَة: الشك.

[ومعلوم أن النبيّ ﷺ لم يكن شاكاً فيما أوحى الله إليه، وإنما هذا كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: آية ٢٤] وكقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤] وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: آية ١] ولا يخفى أن رسول الله صلوات الله][(٢)] وسلامه عليه أنه متق لله وأنه لا يطيع منهم آثماً ولا كفوراً، وأنه لا يشرك. وقد قدمنا مراراً[(٣)] أنه جرت العادة في القرآن أن الله (جل وعلا) يأمر نبيه ﷺ وينهاه ليُشرِّع ذلك الأمر والنهي لأمته على لسانه ﷺ؛ لأنه هو القدوة لهم، المُشَرِّع لهم بقوله، وفعله وتقريره، ومن أكبر الأدلة على ذلك: هو ما قدمنا في آية بني إسرائيل، وهي قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: آية ٢٣] هذا خطاب للنبي ﷺ على التحقيق؛ لأن كل الخطابات في الآيات له، يقول له الله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ يعني: إن يبلغ عندك والداك الكبر أو أحد والديك ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ ومعلوم أن وقت نزولها أن والديه قد ماتا من زمان؛ لأن أباه مات وهو حَمْل، وأمه ماتت وهو (صلوات الله عليه

(١) انظر: المفردات (مادة: مرى) ص ٧٦٦.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من هذه السورة.

وسلامه) صغير، فعُرف أنه أَمَرَه بأنه إن بلغ والداه أو أحدهما الكِبَر أن يبرهما، وهما قد ماتا، لا يمكن برهما، عرفنا من ذلك أنه يأمره ليُشرِّع للناس على لسانه ﷺ، وقد بينا مراراً أن من أساليب اللغة [١٥/ب] العربية المعروفة: / أن الإنسان يُخاطب إنساناً والمراد عنده بالخطاب غيره[١]، وذكرنا فيه مراراً المثل المعروف: (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)[٢] وبينا فيما مضى أنه من رَجَز لرجل من بني فزارة، يُسمىٰ: سهل بن مالك، نزل في بيت حارثة بن لأم الطائي، ووجده غائباً، فأكْرَمَتْه أخته، وأُعجب بجمالها، فأراد أن يُعَرِّض لها بالخطبة فخاطب أُخرىٰ غيرها قائلاً:

يا أُختَ خير البدو والحضَارة كيف تريـن فـي فتـى فَـزَارة
أصبـح يهـوى حُـرةً مِعْطَـارة إيـاكِ أعنـي واسمعي يـا جـارة

فَعَلِمَت بنتُ[٣] حارثة بن لأم الطائي أن الخطاب مُوَجَّه إليها وإن كان يخاطب غيرها حيث قال: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».

فأجابت قائلة:

إنـي أقـولُ يـا فتـى فَـزَارة لا أبتغـي الـزوجَ ولا الـدعـارَة
ولا فـراق أهـل هـاذي الحـارة فـارحـل إلـى أهلـك بـاستحـارة

والشاهد من هذا الرَّجَز قوله: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة»

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/ ٤٨٥ ـ ٤٨٧، ٥٠٠)، (٣/ ١٩١)، بصائر ذوي التمييز (١/ ١٠٩)، فتح الباري (٣/ ١٧٤، ٣٥٥).

(٢) انظر: المثل ومناسبته في كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلاّم ص ٦٥، وانظر معه في الهامش رقم (٢): مجمع الأمثال للميداني (١/ ٨٠ ـ ٨١).

(٣) هذا من سبق اللسان. وإلا فهي أخته.

فهو أُسلوب عربي، يخاطب الإنسان إنساناً لينقل الخطاب بواسطته إلى غيره، والقرآن بلسان عربي مبين، ولا سيما أن النبي ﷺ هو المشرِّع، فما أُمر به أو نُهي عنه صار مُشَرَّعاً لأمته (صلوات الله وسلامه عليه)؛ ولذا قال هنا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٤] وقالت جماعة من أهل العلم: الخطابات في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: آية ٦٥] كالخطاب العام المُوَجَّه لجميع الناس وإن كان لفظه مفرداً[1]، كما هو معروف، كقول طَرَفَة بن العبد[2]:

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

فإن هذا الخطاب لفظه كأنه مفرد، ومعناه عام مُوَجَّه لكل من يصح منه الخطاب. هذا معنى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: لا تكونن يا نبي الله. أي: يا مخاطب ممن يصح منه الخطاب ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: في الشاكين في أن هذا الكتاب منزل من الله. أي: لا تكونن من الممترين في أن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٥]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا الكوفيين الثلاثة، قرأه من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، كلهم قرؤوا: ﴿وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً﴾ بصيغة الجمع، وقرأه الكوفيون، أعني: عاصماً، وحمزة، والكسائي: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٠٩).

(٢) البيت من معلقته. وهو في شرح القصائد المشهورات (١/ ٩٤).

بالإفراد[١]. ومعنى القراءتين واحد؛ لأن (الكلمة) أُضيفت إلى معرفة فتعمُّ، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كلمات ربك. وقد بين الله (جل وعلا) في آيات من كتابه أن كلماته (جل وعلا) لا حصر لها ولا نهاية، كما قال في قوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: آية ٢٧] وكقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: آية ١٠٩] والمراد بالتمام هنا: الكمال التام من جميع الجهات، والمعنى: أن كلمات الله ـ ومنها هذا القرآن العظيم ـ أنها بالغة غاية الكمال والتمام.

وقوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال بعضهم[٢]: هما تمييز مُحوَّل عن الفاعل. أي: تم صدقها وعدلها.

وقال بعض العلماء[٣]: هما مصدران حالان. أي: تمت في حال كونها صادقة عادلة.

وأعربهما بعض العلماء بأن كليهما ما ناب عن المطلق؛ لأن التمام يتضمن معنى الصدق والعدالة، أي: تمت، أي: صَدَقَت وعَدَلَت. ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ والمعنى أنها كاملة صدقاً في أخبارها، وعدلاً في أحكامها. وقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي: في جميع الأخبار ﴿وَعَدْلًا﴾ أي: في جميع الأحكام. فما في القرآن من أحكام فهو في

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢١٠.
(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ١٢٤).
(٣) انظر: الدر المصون (٥/ ١٢٤).

غاية العدالة، والإنصاف، ومراعاة مصالح البشر في دنياهم وأُخراهم، وما فيه من الأخبار فهو صحيح حق مطابق للواقع، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يعني أن ما تُخبرون فيه من الأخبار هو حق، وما تُؤمرون فيه وما تُنهون عنه فيه من الشرائع فهو في غاية العدالة والكمال، وإذا كانت كلمات الله بهذه المثابة من الكمال والصدق في الأخبار، والعدالة في الأحكام، فليس لأحد أن يطلب عنها غيرها، فالله (جل وعلا) كلماته تامة في عدالتها، كل شرعه في غاية العدالة، والإنصاف، والإحكام، وكل أخباره في غاية الصدق؛ ولذا فإن هذا القرآن العظيم جاء للبشرية بخير الدنيا والآخرة، أما في دار الدنيا: فجاء فيه تنظيم علاقاتها، أُمر فيه الفرد بأن يكونْ لبنة صالحة لبناء المجتمع، بأن يكون سخياً باذلاً لما لديه، وأن يكون شجاعاً مضحياً، وأن يكون مخلصاً لأمته لا يغشها، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق. وعَلَّم الإنسان كيف يعاشر أقرب الناس إليه، زوجته، وأبنائه، وأُسرته الأدنين، أمره أن يتحفظ منهم غاية التحفظ لدينه ودنياه؛ لأنهم ربما أوقعوه فيما لا ينبغي، ثم أمره إذا وجد منهم ما لا يحب أن يعاملهم باللين والصفح والمغفرة، كما قال في التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] فمن شدة حكمته يُعَلِّم الإنسان كيف يعاشر أُسرته الأدنين، وأن يحذر من شر امرأته وأولاده؛ لئلا يضيّعوا عليه دينه أو دنياه، ثم إذا عثر منهم علىٰ ما لا ينبغي أمره ألا يعاملهم بالشدة والمكروه؛ ولذا قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ ثم قال ـــ إذا رأىٰ منهم ما يكره ـــ: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ وعلم الإنسان

كيف يعاشر مجتمعه، وبين له ما يعاشر به مجتمعه من الوفاء، والإخلاص، والبذل، والسخاء، والتضحية، وأمر الرؤساء أن يلينوا للمرؤوسين، وأن يسعوا في مصالحهم، وينصفوهم، ويلينوا لهم الجانب ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: آية ١٥٩]، ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر: آية ٨٨] وأمر المرؤوسين أن يُطيعوا الرؤساء، ويعاونوهم على الخير، والسمع والطاعة، لتتحد جهود الجميع إلى ما فيه مصلحة الدنيا والآخرة. وأحاط الجواهر الست التي عليها مدار المظالم والإنصافات في دار الدنيا؛ لأن جميع المظالم والإنصافات في دار الدنيا إذا تأملتها فهي راجعة إلى ستة جواهر، اعتنىٰ دين الإسلام بالإحاطة بها، وهذه الجواهر الست ـ أعني بها ـ الدين، والنفس والنسب، والعقل، والمال، والعِرْض. هذه الجواهر الست التي تدور حولها المظالم والإنصافات في الدنيا[(١)]، وأعظمها: دين الإنسان. فهؤلاء الذين يأتون البلاد متمسكة بدين، ويدسون لهم السموم، والمذاهب الهدامة، والتعاليم الخبيثة، حتى يضيعوا دينهم، ويفصلوا بينهم وبين خالقهم، هذا أكبر عدوان، وأعظم جريمة عرفها التاريخ. كذلك الأنفس بعد ذلك، الذي يظلم إنساناً فيقتله ظلماً، ثم بعد ذلك تكون العقول، كالذي يضيع عقل الإنسان، أو إنسان يضيع عقل نفسه، كالذي يشرب الخمر. فالله (جل وعلا) حمى الدين، كما قال ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه»[(٢)] حماية للدين. وقال الله جل وعلا: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

(١) انظر: المستصفى (١/ ٢٨٧)، أضواء البيان (٣/ ٤٤٩).

(٢) البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، حديث رقم: (٦٩٢٢)، (١٢/ ٢٦٧).

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: آية ٣٩] وقد حمىٰ الله الأنفس؛ ولذلك شرع القصاص حياطة لأنفس الناس؛ لأن من أعظم السد دون القتل هو شرعية القصاص، والله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] هذا من مراعاة القرآن لمصالح البشرية في دينها ودنياها؛ لأن القاتل إذا احترق قلبه من الغضب فأخذ الآلة ليقتل تذكر إيقافه للقصاص على الخشبة للقتل فارتعدت فرائصه، وخاف من ذلك الموقف الهائل، فَسَلِم هو من القتل، وسلم من كان يريد أن يقتله، كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] وقد جعل على العقول حمىٰ، حيث حرم شرب كل ما يضر بالعقل من مسكر ونحوه، قال ﷺ: «كل مسكر حرام»(١)

---

(١) هذه الجملة رواها عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:
١ ــ عبد الله بن عمر (رضي الله عنه): أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام برقم: (٢٠٠٣)، (٣/ ١٥٨٧).
٢ ــ أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر، برقم: (٢٤٢)، (١/ ٣٥٤)، وأطرافه في: (٥٥٨٥، ٥٥٨٦)، ومسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم: (٢٠٠١)، (٣/ ١٥٨٥) بلفظ: (كل شراب أسكر فهو حرام).
٣ ــ جابر بن عبد الله (رضي الله عنه): أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام برقم: (٢٠٠٢)، (٣/ ١٥٨٧).
٤ ــ أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه): أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم: (٤٣٤٣، ٤٣٤٤، ٤٣٤٥)، (٨/ ٦٢)، وأطرافه في (٦١٢٤، ٧١٧٢)، وأخرجه مسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، برقم: (١٧٣٣)، (٣/ ١٥٨٦).

=

«مـا أسكـر كثيـره فقليلـه حـرام»(١) . . . .

= ٥ ـ بريدة (رضي الله عنه): أخرجه مسلم في الأشربة، باب النهي عن الانتباذ في المزفت، حديث رقم: (٩٧٧)، (٣/ ١٥٨٥).

وفي الباب ـ في غير الصحيحين ـ عن ابن مسعود، وأشج عبد القيس، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأبي وهب الجيشاني، ووائل بن مُحبر، وابن عباس، وأنس، وعبد الله بن عمرو، وقيس بن سعد بن عبادة، وبريدة، وفيروز بن الديلمي، وأبي سعيد الخدري، وعلي، وعبد الله بن المغفل، وقرة بن إياس، وميمونة (رضي الله عنهم أجمعين).

(١) الحديث جاء عن جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:

١ ـ عائشة: أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٧١، ٧٢، ١٣١)، وأخرجه في كتاب الأشربة كذلك ص ٩٧، وأبو داود في السنن، كتاب الأشربة، باب ما جاء في السكر، برقم: (٣٦٧٠)، (١٠/ ١٥١)، والترمذي في السنن، أبواب الأشربة، باب ما جاء أن ما أسكر كثيره فقليله حرام، برقم: (١٨٦٦)، (٤/ ٢٩٣)، وابن الجارود في المنتقى كما في الغوث (٣/ ١٥٤)، وأبو يعلى في المسند (٧/ ٣٢٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٧/ ٣٧٩)، والطبراني في الأوسط (٤/ ١٩٤، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٤٩)، (٩/ ١٣٠)، وأخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ١٢٥٥)، (٣/ ٩٩٤)، (٤/ ١٦٢٤)، وأخرجه الدارقطني في السنن بألفاظ مختلفة (٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٦)، وأخرجه ابن حزم في المحلى (٧/ ٥٠٠، ٥١٠)، والبيهقي في السنن (٨/ ٢٩٦)، وفي الشعب (١٠/ ١٩١)، والجوزجاني في الأباطيل والمناكير (٢/ ٢٣٨)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدراية (٢/ ٢٥٠)، والألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٤٠٧)، وصحيح أبي داود (٢/ ٧٠٣).

٢ ـ زيد بن ثابت: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ١٣٩)، وفي الأوسط (٦/ ٢٩١)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدراية (٢/ ٢٥٠). =

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وتحريم هذه المسكرات كلها محافظة من النظام السماوي على عقول الناس؛ لأن من شرب فضاع عقله ارتكب كل فاحشة وكل سوء ــ والعياذ بالله ــ لأن نور العقل هو النور الذي يميز الإنسان به بين الحسن والقبيح، والنافع والضار، فربما إذا سكر ربما وقع على ابنته، وربما ضرب جاره. وذكر بعضهم في تفسير آية الخمر في سورة المائدة: أنه رأى شائباً شارباً ــ والعياذ بالله ــ يبول في يديه ــ يتخيل للخبيث أنه يتوضأ ــ ويستنشق ويتمضمض بالبول، ويغسل وجهه ولحيته بالبول، ويقول: الحمد لله الذي جعل الإسلام نوراً، والماء طهوراً[1]!! وهو لا يدري أنه يغسل وجهه بالبول والعياذ بالله!! فالخمر أم الخبائث، ولمحافظة دين الإسلام على العقول حرم كل ما يضر بالعقل، فحرم شرب الخمر، وأوجب النبي ﷺ الحد في شربها، كذلك حافظ القرآن العظيم على أنساب الناس، فمنع الزنى صيانة للأنساب، وتطهيراً للفُرش من التقذير؛ لئلا تتقذر فُرش المجتمع، وتختلط أنسابه. ولذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ

= (٨/ ٢٩٦)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في الدراية (٢/ ٢٥٠)، وفي التلخيص (٤/ ٧٣)، وانظر: صحيح ابن ماجه (٢/ ٢٤٥)، صحيح النسائي (٥١٨٠).

٩ ــ علي بن أبي طالب: أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٥٠)، والبيهقي (٨/ ٢٩٦)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/ ٧٣)، وفي الدراية (٢/ ٢٥٠) وقال فيه: «إسناده ساقط». اهـ.

١٠ ــ ابن عباس: أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٥٦).

(١) انظر: التفسير الكبير (٦/ ٤٦)، روح المعاني (١/ ١١٤)، تفسير المنار (٢/ ٣٢٧)، وانظر: ما يشبه هذه الحكاية في القرطبي (٣/ ٥٧).

فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: آية ٣٢] وأوجب في الزنا الجلد الرادع ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: آية ٢] كل هذا محافظة على الأنساب ومكارم الأخلاق؛ لئلا تتقذر فرش المجتمع، وتختلط أنسابه. وفي آية محكمة الحكم منسوخة التلاوة: أن الزاني المحصن أنه يرجم؛ لأن جريمته عظمىٰ، والذي اعتاد النساء لا يصبر عنهن، فكان الزجر في جنبه أغلظ؛ لأنه ارتكب أخس جريمة، وتعرض لاختلاط أنساب الناس، وتقذير فرش المجتمع، فَقَتَلَه القرآن أشد قتلة، في آية منسوخة التلاوة، باقية الحكم «الشيخ [والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فهذا الحد][1] يطهر به البدن.

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام. وقد جاء في بعض الروايات زيادة: «بما قضيا من اللذة».
وأصل الخبر المشار فيه لآية الرجم ـ دون لفظها ـ ثابت مشهور، أخرجه الشيخان وغيرهما من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس.
وقد رواه عن الزهري: ابن عيينة، ومعمر، ويونس، ومالك، وصالح بن كيسان، وعقيل، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهُشيم، وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الملك بن أبي بكر، والحسن بن محمد بن الصبَّاح.
وكلهم يرويه من غير هذه الزيادة (والشيخ والشيخة. . .) إلخ، سوى سفيان بن عيينة عند بعض من أخرج الحديث من طريقه؛ كما في ابن أبي شيبة (١٠/ ٧٥، ٧٦)، وابن ماجه، كتاب الحدود، باب الرجم، حديث رقم: (٢٥٥٣)، (٢/ ٨٥٣)، والنسائي في الكبرى، باب: تثبيت الرجم، حديث رقم: (٧١٥٦)، (٤/ ٢٧٣)، والبيهقي (٨/ ٢١١).
وأما رواية البخاري ومسلم للحديث من طريق سفيان فمن دون هذه الزيادة، وهو عند عبد الرزاق في المصنف (٧/ ٣٣٠)، عن ابن عباس من غير طريق =

وهذه نُبَذٌ قليلة يفهم بها الإنسان كيف حافظ دين الإسلام على مصالح البشر، وأحاط أديانهم، وأحاط أنفسهم، وحفظ عقولهم،

= الزهري.

وقد أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، (ما جاء في الرجم)، حديث رقم: (١٥٠١)، ص ٥٩٢، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٦/ ٣٢٣)، وفي الكبرى (٨/ ٢١٢ ــ ٢١٣)، من طريق سعيد بن المسيب ــ منقطعاً ــ عن عمر بهذه الزيادة. مع أن هذه الرواية أخرجها أحمد والترمذي من غير الزيادة السابقة.

والحديث ــ بهذه الزيادة ــ له عدة شواهد وهي:

١ ــ من حديث زيد بن ثابت (رضي الله عنه) عند أحمد (٥/ ١٨٣)، والدارمي (٢/ ١٠٠)، والنسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم: (٧١٤٥)، (٧١٤٨)، (٤/ ٢٧٠ ــ ٢٧١)، والبيهقي (٨/ ٢١١)، والحاكم (٤/ ٣٦٠)، وابن حزم (١١/ ٢٣٥).

٢ ــ من حديث أُبي بن كعب (رضي الله عنه) عند أحمد (٥/ ١٣٢)، وعبد الرزاق (٧/ ٣٢٩ ــ ٣٣٠)، والنسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم: (٧١٥٠)، (٤/ ٢٧١)، والبيهقي في السنن (٨/ ٢١١)، وفي المعرفة (٣/ ٤٧٣)، والضياء في المختارة (٣/ ٣٧٠ ــ ٣٧١)، والطيالسي ص ٧٣، وابن حبان (٦/ ٣٠١ ــ ٣٠٢)، والحاكم (٢/ ٤١٥)، (٤/ ٣٥٩)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٢٣٤).

وقال ابن كثير (٣/ ٤٦٥): «هذا إسناد حسن». اهـ، وقال ابن حزم في المحلى (١١/ ٢٣٥): «هذا إسناد صحيح كالشمس لا مغمز فيه». اهـ.

٣ ــ من حديث أبي أمامة (سهل بن حنيف) عن خالته العجماء، عند النسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم: (٧١٤٦)، (٧١٤٧)، (٤/ ٢٧٠ ــ ٢٧١)، والحاكم (٤/ ٣٥٩).

وهذه الزيادة قد صححها بعض أهل العلم وضعفها آخرون. انظر: الإرواء (٨/ ٣)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٨١).

وأنسابهم، وأعراضهم، وأموالهم، كل هذا تشريع رب العالمين، ينظم فيه علاقات الدنيا على أكمل الوجوه، ويهذب أرواحها لتتقي. والقرآن العظيم اعتنى بالإنسان من ناحيتيه: من ناحيته الجسدية، وناحيته الروحية؛ لأن هذا الحيوان المسمىٰ بالإنسان هو مركب من عنصرين مختلفين في الحقيقة أشد الاختلاف، أحدهما: يُسمى الروح. والثاني: يُسمىٰ الجسد. ولا بد لكلٍّ منهما من متطلبات، فللروح متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الجسد، وللجسد متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الروح. فالقرآن العظيم جاء للإنسان بمتطلباته الجسدية، ومتطلباته الروحية، فَنَظَّم له جميع العلاقات التي بها تَقَدُّمه وقوته في الدنيا في جميع الميادين من حيث إنه جسد حيواني، وبين له طرق الصلة بالله لتتهذب روحه على ضوء النور السماوي؛ لأن الروح هي التي لها الأهمية، والمادة إذا طغت وقويت ولم تقدها روح مهذبة كانت ويلة عظمىٰ على البشرية. وأنتم تشاهدون هذا في الدنيا، تشاهدون الكتلة الشرقية والغربية، كلتاهما نجحت غاية النجاح في خدمة الإنسان من حيث إنه جسد حيواني، وأفلستا كل الإفلاس في خدمة الإنسان من ناحيته الروحية، وصارت هذه المادة لم تقدها روح مرباة مهذبة على ضوء تعليم سماوي، فكانت ويلة عظمى على البشرية، وخطراً داهماً يهدد الإنسان، ولذلك تجدونهم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر، والمجلس بعد المجلس ليُدمِّروا القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس خوفاً منها، وكل منهم يبيت في قلق وخوف من القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس!!

كل ذلك إنما جاءهم من إهمالهم الناحية الروحية؛ لأن أرواحهم لو كانت مرباة على ضوء نور سماوي من تعاليم رب

العالمين كان البشر في أمن وطمأنينة أن تلك الروح المهذبة المرباة لا تقود تلك المادة الطاغية، والقوة الهائلة إلا قيادة طبيعية لخير البشرية، وخير الدنيا والآخرة. فإهمال الناحية الروحية هو من أعظم البلايا والويلات.

ونحن دائماً ننبه أبناءنا معاشر المسلمين؛ لأنا نأسف كل الأسف أنهم أضلتهم الحضارة الغربية، فانفصلوا عن تعاليم السماء، وقطعوا الصلة بينهم وبين من فتح أعينهم، ونحن نبين لهم الحقائق، ونضرب لهم الأمثال؛ لأن الحضارة الغربية بالاستقراء التام الذي لا يمكن أن يكابر فيه إلا مكابر جاحد للمحسوس جمعت بين نافع لَا مِثَال لنفعه، وبين ضار لَا مِثَال لضره. أما الذي حصلته من النفع: فهو ما حصلت عليه من التقدم المادي، والتقدم التنظيمي في جميع ميادين الحياة، فهذا الأمر كماء المُزْن، والتواكل عنه عجز، وضعف، وتمرد على نظام السماء؛ لأن نظام السماء يأمر المسلم أن يكون قوياً متقدماً في جميع الميادين العملية، سابحاً في جميع الميادين العملية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] هذا الأمر كأنه يقول: أعدوا ما يكون في المستطاع من القوة كائناً ما كان، مهما تطورت القوة، ومهما بلغت، فالمتواكلون العَجَزَة الذين لا يُعِدون القوة متمردون على نظام السماء، مخالفون لأمر خالق السماوات والأرض ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] ومن نظر في القرآن وجده جامعاً بين الأمرين: الأمر بالقوة والتقدم، مع المحافظة على الآداب الروحية.

ونحن دائماً نضرب بعض الأمثال: اقرؤوا آيتين من سورة النساء: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ

وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۗ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ﴾ إلى آخر الآيتين. [النساء: الآيتان ١٠٢، ١٠٣] هـذا وقـت التحـام الكفـاح المُسَلَّـح، والـرؤوس تنـزل عـن الأعناق، وفي هذا الوقت الحَرِج نظام السماء والقرآن العظيم يدبر الخطة العسكرية على أكمل الوجوه، في الوقت الذي يُحافظ فيه على الاتصال بخالق هذا الكون، وتربية الروح بأدب سماوي من آداب السماء، وهو الصلاة في الجماعة، والله (جل وعلا) يقول في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: آية ٤٥] وقوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ تعليم عسكري سماوي، يأمر به خالق السماوات والأرض بالصمود في الميدان في خطوط النار الأمامية. وفي هذا الوقت الضنك يقول الله (جل وعلا): ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ هكذا فليكن المؤمن، قوياً في جميع الميادين، محافظاً على آدابه الروحية متصلاً بربه صلة روحية؛ لأن الروح المهذبة على ضوء التعليم السماوي تقود المادة والقوة قيادة طبيعية حكيمة، ليس بها ويلة على البشر.

وما أنتجته الحضارة الغربية من المنافع، وما جنته من المضار نضرب له في المناسبات مثلاً يصير به المعقول كالمحسوس، مثال ذلك[1]: هو أن رجلاً بعيداً من العمران، منقطعاً في آخر رمق من الحياة، وجد ماءً عذباً زُلالاً وسماً قاتلاً فتاكاً، فحاله مع هذا السم القاتل والماء العذب الزلال، حاله لا بد أن تكون واحدة من أربع حالات: إما أن يشربهما معاً، وإن شربهما معاً لم ينتفع بالماء الزلال؛ لأن السم الفتاك يقتله، وإن تركهما معاً انقطع عن الركب،

(١) انظر: الأضواء (٤/ ٣٨١).

ومات في الطريق. وإن شرب السم وترك الماء فهذا رجل أحمق أهوج لا يبين نافعاً من ضار، وإن كان رجلاً عاقلاً شرب الماء وترك السم.

فالحضارة الغربية فيها ماء عذب زلال، وفيها سم فاتك قتّال. أما ما فيها من الماء الزلال: فهو ما أنتجته من القوة المادية؛ والقوة التنظيمية في جميع ميادين الحياة. وأما ما فيها من السم الفاتك القتَّال: فهو التمرد على نظام السماء، والطغيان والعصيان لخالق هذا الكون (جل وعلا)، والإفلاس الكلي في الآداب الروحية السماوية.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نتنبه لهذا، ونفرق بين السم والماء، فنأخذ من الحضارة الغربية ما استطعنا من قوتها المادية، ونجتنب كل التجنب، ونتباعد كل البعد عن سمها الفتاك القتَّال، مما جنته من التمرد على نظام السماء، ومعصية خالق هذا الكون، والانحطاط الخلقي، وضياع الأخلاق والقيم الروحية الإنسانية.

والذي يؤسف كل الأسف أن أغلب ـ إلا من شاء الله ـ من يُحَرِّكُون الدَّفَّات ربما أخذوا منها ضارها من الانحطاط الخلقي؛ والزهد في الإسلام، وقطع الصلة بالله، وعدم صلة السماء بالأرض، في الوقت الذي هم فيه مفلسون كل الإفلاس من مائها الزلال، ومنافعها الدنيوية، فعكسوا القضية والعياذ بالله.

ما أحسنَ الدينَ و الدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفر والإفلاسَ بالرجلِ(١)

فعلى المسلم أن يفرق بين ما يضر وما ينفع، ويفرق بين ضار الحضارة الغربية ونافعها، ويستفيد من نافعها من القوة المادية

---

(١) هذا البيت يُنسب لأبـي دلامة الأسدي، وهو في ديوانه ص ٧٧.

والتنظيمية، ويحذر كل الحذر من ضارها من الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ومعصية خالق هذا الكون؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا إذا فقد صلته بخالق السماء الذي فتح عينيه، وجعل له فيهما النور، وأبدعه من غرائب صنعه وعجائبه ما يبهر العقول، مَنْ خسر صلته بالله خَسِر كل شيء، ولم يبق له في الدنيا شيء، فعلى المسلمين أن يحافظوا على تراثهم الروحي، وآدابهم السماوية من طاعة خالق هذا الكون، في الوقت الذي هِم فيه ينتفعون بالمادة والقوة.

ونحن نبين لإخواننا مراراً أن دين الإسلام يأمر بالمحافظة على التعاليم السماوية، والآداب الروحية، ويأمر بالتقدم الدنيوي في جميع الميادين، حتى ولو كان ذلك التقدم الدنيوي العقولُ الذي أنتجته: عقولُ كفرة فجرة، وكذلك كان سيد البشر، مربي هذا الخلق، ومبين الطريق له ــ نبينا ﷺ ــ كان كذلك يفعل[١].

أنتم تعلمون في التاريخ أنه لما حاصره الأحزاب في غزوة الخندق ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم المنصوص في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] لما وقع هذا قال له سلمان الفارسي (رضي الله عنه): كنا إذا خفنا خَنْدَقْنا[٢]. فالخندق خطة عسكرية، العقولُ التي ابتكرتها عقولُ فارس، وهم مجوس يعبدون النار، فالنبي ﷺ لم يقل: هذه الخطة العسكرية نجسة قذرة؛ لأن

(١) انظر: الأضواء (٤/ ٣٨٣).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٤).

العقول التي ابتكرتها عقول كفرة. لا، بل أخذ الخطة الكافرية التي مبدؤها من الكفار، واستعان بها في دنياه، وهو مُرْضٍ ربه فيما بينه وبين الله، متمسك بالآداب السماوية، والتصفية الروحية.

وكذلك لمَّا تكالبت عليه قوىٰ الشر، واضطُر إلى أن يخرج من وطنه مهاجراً إلى هذه المدينة حرسها الله، والناس كلهم حرب عليه، واضطر إلى أن يدخل هو وصاحبه الصدِّيق (رضي الله عنه) إلى أن يدخلا في غار خوفاً من المشركين، كما بينه الله في سورة براءة ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: آية ٤٠] وجد رجلاً كافراً يُسمىٰ عبد الله بن الأُريقط الدؤلي[١]، ولكنه عنده خبرة دنيوية، فهو خبير دنيوي كافر، يعرف الطرق، والطرق المعهودة بين مكة والمدينة جعل الكفار عليها الرَّصَد والعيون، إذا سلكوها أُخذوا، فصار هذا الخبير الكافر ــ عبد الله بن الأُريقط الدؤلي ــ يعلم طرقاً غير معهودة. ساحَلَ به إلى جهة البحر، وجاء به من طرق غير معهودة، حتى أوصله المدينة بسلام[٢] [فلم يمنعه كفره من الانتفاع بخبرته الدنيوية][٣] على حد قولهم: (اجتنِ الثمار، وألق الخشبة في النار). لم يمنعه من ذلك كونه كافراً، وهو فيما بينه وبين ربه مرضٍ ربه، محافظ على الآداب السماوية، والتهذيب الروحي على ضوء تعليم السماء.

---

(١) هناك بعض الاختلاف في اسمه. انظر: الفتح (٧/ ٢٣٧ ــ ٢٣٨).

(٢) انظر: البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم: (٣٩٠٥)، (٧/ ٢٣٠).

(٣) وقع في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ همَّ أن يمنع وطء النساء إذا كانت ترضع أولادهن؛ لأن العرب كانوا يظنون أن المرأة إذا أتاها زوجها وهي ترضع أن ذلك الوطء يُضعف عظم ولدها ويضره، هذا كان مشهوراً عند العرب، وكانوا إذا رمىٰ الرجل بالسيف فنَبَا سيفه عن الضريبة، ولم يقطع، قالوا: هذا رجل وُطئت أُمه وهو يَرْضَع، كما قال شاعرهم[1]:

فوارسُ لم يُغالوا في رضاعٍ فتنبُو في أكفهم السيوفُ

فلما أخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم أخذ هذه الخطة الطبية من الكفار[2].

والقصد أن ننبه إخواننا على أن دين الإسلام دين تقدم في الميدان، ودين قوة، ليس دين جمود، ولا دين إخلاد إلى الأرض، بل هو دين كفاح، وقوة، وجهاد، وتقدم في الميدان، وقَود الدنيا وإضاءتها بالنور إلى ما ينفعها في دنياها ودينها، وقد نظم الله فيه ـ في كتابه ـ علاقات البشر في الدنيا والآخرة، وأوضح لهم ما يَحْيَون به في الدنيا حياةً سعيدةً، ويَحْيَون به الحياة الأبدية بعد الموت حياة سعيدة، فعلى المسلم أن يعلم أن دين الإسلام دين كفاح وتقدم في الميدان، إلا أنه يجب فيه المحافظة على طاعة خالق هذا الكون؛ لأن هذا الكون له خالق هو الذي خلقه، ومَلِكٌ هو الحكم العدل فيه، ولم يترك الناس سدى. أَمَرَهَمُ ونهاهم، فلا بد أن تُطاع أوامره، وتُسلك طرقه التي أمر بها، وكل ذلك ما فيه للإنسانية إلا خير الدنيا

(١) البيت في الكامل ص ١٧٧.

(٢) مسلم، كتاب النكاح، باب: جواز الغَيلة، حديث رقم: (١٤٤٢)، (١٠٦٦/٢).

والآخرة؛ ولذا قال (جل وعلا) هنا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] صدقاً في كل ما تخبر به من الأخبار، وعدلاً في كل ما تحكم به من الأحكام، وكل ما تشرعه للبشرية.

وقوله جل وعلا: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لأن كلمات الله (جل وعلا) هي في غاية الحق، والصدق، والعدالة، لا يمكن أحدًا أن يبدلها ويُحوِّل عدالتها جوراً، أو يُحَوِّل صدقها كذباً، لا يمكن أحدًا أن يفعل ذلك، فهي في غاية العدالة والصدق والكمال، لا يمكن أحداً أن يغيرها فيجعل عدلها جوراً، ولا أن يجعل صدقها كذباً أبداً.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧﴾ هو السميع لكل ما يقوله خلقه، العليم بكل ما يعمله خلقه، وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(١)]: أنه جرت العادة في القرآن: أن الله لا يذكر آيات تتضمن أوامر ونواهي إلا وترى بعدها الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم؛ لأنه لا خلاف بين العلماء أنه لا يوجد واعظ أكبر، ولا زاجر أعظم من زاجر المراقبة والعلم. وهو أن يعلم هذا الإنسان المسكين أن خالق السماوات والأرض مطلع عليه، يعلم ما يسر وما يُعلن، حتى ما يخطر في قلبه فهو يعلمه (جل وعلا). إن الله يعلم خطرات القلوب وكيف يجهل خطرات القلوب من هو خالق خطرات القلوب؟! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: آية ١٤] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: آية ١٦] فالله يقول لنا في كل موضع من كتابه، لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

والنبـي ﷺ لم يدرك منهم أحداً، ولـم يُعَاشِر منهم أحداً.

والحــاصــل أن المَعْشَـر: الجمــاعــة، أي: يــا جـمــاعــة الجن.

وأصل (الجن) مشتق من الاجتنان، وكل ما يخفى عنك ويجتن فهـو مجنـون عنـك، أي: مغيـب. ومنـه: جَـنَّ عليـه الليـل، وقيـل للجنين: (جنين) لأن بطن أمه يُجنُّه، ومنه سُمي المجنون (مجنوناً) لغيبوبة عقله[1]. وبعضهم قال: تُسمي العرب الملائكة (جِنّاً)؛ لأنهم محجوبون عن الأبصار، وهو أحد التفسيرين في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ

= مواضع أُخرى. انظر: الأحاديث (٢٩٠٤، ٣٠٩٤، ٤٠٣٣، ٤٨٨٥، ٥٣٥٧، ٥٣٥٨، ٧٣٠٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: حكم الفيء، حديث رقم: (١٧٥٧)، (٣/ ١٣٧٦).

٢ ــ عائشة (رضي الله عنها): عند البخاري في فضائل الصحابة، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ، حديث رقم: (٣٧١١ ــ ٣٧١٢)، (٧/ ٧٧)، وانظر: الأحاديث (٦٧٢٥، ٦٧٢٧، ٦٧٣٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: **«لا نورث ما تركنا فهو صدقة»**، حديث رقم: (١٧٥٩)، (٣/ ١٣٨٠)، وانظر: حديث رقم: (١٧٥٨).

٣ ــ أبو هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الوصايا، باب: نفقة القيم للوقف، حديث رقم: (٢٧٧٦)، (٥/ ٤٠٦)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر: حديث رقم: (٣٠٩٦، ٦٧٢٩)، ومسلم في الجهاد، باب: قول النبي ﷺ: **«لا نورث ما تركنا فهو صدقة»**، حديث رقم: (١٧٦٠)، (٣/ ١٣٨٢).

وقد أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٣)، بنفس اللفظ الذي أورده الشيخ رحمه الله هنا.

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[١] [الصافات: آية ١٥٨] والعرب تعرف ذلك، ومنه قول الأعشى يمدح سليمان[٢]:

وسَخَّرَ من جِنِّ الملائِكِ تِسْعَةً ... قِيَاماً لديْهِ يَعْملونَ بلا أَجْرِ

والمراد بالجن هنا: عُتاتهم وشياطينهم الذين كانوا يضلون الآدميين ويغوونهم في دار الدنيا، يقول لهم الله يوم القيامة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ أعني: يا جماعة الشياطين ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ والمعنى: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم[٣] ــ والعياذ بالله ــ حتى أضللتم منهم أعداداً طائلة وجبلاً كثيراً ضخماً، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢].

وهذه الآيات يبينها الله لنا في دار الدنيا لنحذر من أن تكون الشياطين تستهوينا وتضلنا لتدخلنا النار، وقد بين القرآن أن هذا العدد الكثير من الإنس الذي أضلتهم شياطين الجن الذين قال الله فيهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أن منهم الذين يتبعون تشريع الشيطان، ويحيدون عن تشريع الله فيتبعون ما نَظَّمه الشيطان من النُّظُم على ألسنة أوليائه، صرح القرآن بأن هؤلاء داخلون في هذا الاستكثار وما أكثرهم؛ لأن الله يقول في السورة الكريمة ــ وكل سورة من القرآن كريمة ــ أعني سورة يس: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: آية ٦٠]

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٣/ ١٠٨)، القرطبي (١٥/ ١٣٤).

(٢) البيت في ابن جرير (١/ ٥٠٦)، القرطبي (١/ ٢٩٥)، البحر المحيط (١/ ١٥٣)، اللسان (مادة: جنن) (١/ ٥١٧).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/ ١١٥).

ومعنى عبادتهم للشيطان ليست أنهم سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان، ولا صاموا للشيطان، ولا حجوا للشيطان، وإنما عبادتهم للشيطان: هي اتباعهم ما شرعه من النُّظُم على ألسنة أوليائه، كما قدمنا في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فالله ـ مثلاً ـ يقول: إن الميتة حرام ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فالميتة حرام ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] هذا من تشريع الله الذي شرعه على لسان نبيه. فيأتي الشيطان فيشرع نظاماً آخر غير هذا ويقول: ما قتله الله بيده الكريمة بسكين من ذهب أحل وأكرم مما قتله الإنسان بيده؟ فالميتة ذبيحة الله، وهي أحل من ذبيحة الناس!! فهذا تشريع إبليس على ألسنة أولياء إبليس، فصرح الله بأن من اتبع تشريع إبليس وقال: بأن الميتة حلال: أنه مشرك بالله، وهو قوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وهذا الشرك بالله هو عبادة الشيطان التي نهى الله عنها في يسٓ في قوله: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ وليس المراد بعبادته أنهم يسجدون له ويركعون، لا؛ وإنما بطاعته فيما شرع، واتباعه في نُظُمِه وقوانينه، ثم بين أن الذين يتبعون ذلك من هذا الاستكثار المذكور في (الأنعام) حيث قال في (يس): ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ أي: ومنهم الذين عبدوه باتباع نظامه وشرعه وقانونه ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾ فتتركون تشريع خالق السماوات والأرض إلى عبادة الشيطان باتباع نظامه وقانونه، ثم بين مصير هؤلاء فقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: الآيات ٦٠، ٦٢ ـ ٦٥] هؤلاء عابدي الشيطان باتباع تشريعه. ومن هذا المعنى قول خليل الله إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: آية ٤٤] وما كان أبوه يسجد للشيطان، ولكنه كان يتبع نظام الشيطان، وشرع الشيطان، وقانون الشيطان الذي شرعه من عبادة الأوثان، ومعاصاة الرسل. فليعلم كل إنسان أن للشيطان مذهباً وقانوناً وشرعاً وضعه على ألسنة أوليائه من مَرَدَة الإنس، ولخالق السماوات والأرض نظاماً وشرعاً: نوراً منزلاً من السماء شرعه على ألسنة أوليائه، فالذين يعدلون عن نور الله الذي شرعه على ألسنة أوليائه إلى تشريع الشيطان الذي شرعه على ألسنة أوليائه داخلون في قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وداخلون في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝٦٢﴾ [يس: آية ٦٢] سواء سموا ذلك قانوناً، أو سموه نظاماً، أو تشريعاً؛ لأن خالق السماوات والأرض لا يقبل أن يُعبد إلا بما شرع؛ لأنه ملك الملوك لا يقبل غير شرعه وتشريعه، كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ [يونس: آية ٥٩] فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وكل من يتبع نظاماً شيطانياً وضعه الشيطان على مردة شياطين الإنس من أوليائه فإنه يوم القيامة صائر إلى النار، داخل في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: آية ٦٢] وفي قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨].

والنبي ﷺ قد بين هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه، فإنه لما قال له: يا نبي الله: قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ فقال: ألم يُحلوا لهم ما حرّم الله، ويُحرِّموا عليهم ما أحلَّ الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أرباباً[1]. وذلك هو عبادتهم إياهم. فكل تشريع غير تشريع الله، وكل نظام غير نظام السماء الذي يمشي عليه كأنه يقول: تشريع خالق السماوات والأرض أفضل منه تشريع غيره!! فهو ينزل درجة الخالق ـ جل وعلا، سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ـ إلى أن أوضاعاً ملفقة من أذهان الكفرة الفجرة الخنازير أنه أحسن من تشريع الله!! ولذا يعدلون عن نور القرآن والسنة النبوية الصحيحة إلى ما يسمونه قانوناً ونظاماً وضعه أبناء الكلاب القردة الخنازير من اجتهاداتهم، تارة يحرمون ما أحل الله صريحاً، ويحللون ما حرم الله صريحاً، يزعمون أن الهدى في هذا!! هذا ـ والعياذ بالله ـ من أشنع الكفر والطغيان على الله، والتمرد على نظام السماء، واحتقار الخالق ـ جل وعلا ـ حيث كان تشريعه لا ينفع، وتشريع غيره من سفلة الخنازير أحسن من تشريعه!! وهذا إنما وقع ـ والعياذ بالله ـ بسبب طمس البصيرة؛ لأن نور البصيرة إذا طُمس من قلب الإنسان صار يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، والحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، والذين يعدلون عن نور الله يطلبون النور في تشريع المخلوقين هم في الحقيقة ـ بالكلمة التي هي بمعنى الحرف الصحيح ـ هم خفافيش البصائر، أعماهم ضوء القرآن فصاروا يطلبون الضياء في ظلام أفكار الكفرة الفجرة.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

خفافيشُ أعماهَا النهارُ بضوئِهِ ووافَقها قِطْعٌ من الليلِ مظلمُ(١)

مثل النهار يزيدُ أبصارَ الورى نوراً ويُعمي أعينَ الخفاشِ(٢)

والله (جل وعلا) يقول: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] وفي بعض التفسيرات: تكاد أنوار القرآن تعمي بقية بصائرهم، والله يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] لأن النور الساطع الشديد يقضي على البصر الأعشى الضعيف، وقد بين الله تعالى في السورة الكريمة ـ سورة الرعد ـ أن الذي لا يعلم أحقية القرآن، ومنزلته، وكونه هو الذي ينبغي أن يُتبع أن ذلك إنما جاءه من قِبَل عماه؛ لأن الله يقول: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرح بأن الذي منعه من ذلك عماه، وعدم رؤية الأعمى للشمس لا يجعل الشمس فيها ريب.

إذا لم تكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ فلا غَرْوَ أن يرتابَ والصبح مُسفرُ(٣)

والذين عموا عن نور القرآن ونور السنة النبوية التي نظمت حياة البشرية على أكمل الوجوه وأبدعها وأنصفها، وميزت الأوضاع على ضوء نور السماء، فجمعت بين خير الدنيا والآخرة يرفضونها وينصرفون عنها ذاهبين إلى النظام الذي شرعه إبليس ـ عليه لعائن

---

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه (١/ ١٥٧)، تحقيق حسين نصار، ولفظه هناك:

خفافيش أعشاها نهار بضوئه ولاحمها قطع من الليل غيهب

(٢) البيت في المغني لابن قدامة (١٣/ ٣٢٣)، حياة الحيوان للدميري (١/ ٢٩٦)، صبح الأعشى (٢/ ٨٨)، الأضواء (٢/ ٢٧٤).

(٣) البيت ذكره الشيخ في «رفع الإيهام والاضطراب».

الله ـ علىٰ ألسنة أوليائه إنما جرهم إلى ذلك أنهم خفافيش، والخفاش يعميه نور الشمس، وإذا كان النهار وانتشر ضوء الشمس صار الخفاش أعمى لا يرى شيئاً، ولا يقدر أن يقوم من محله، وإذا جاء الليل وأرخى الظلام سدوله قام الخفاش يسرح ويمرح؛ لأن هذا عنده ضياء!! فهذا مثلهم ـ ولله المثل الأعلى ـ .

وعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن الله خصنا بسيد الرسل، وسيد الخلق، وأشرف الأنبياء، وجعل معجزته باقية، وهي هذا النور المنزل الذي يتردد في أسماع البشر إلى يوم القيامة. وفي الحج تلتقي ببعض الحجاج من جميع أقطار الدنيا، ترى الذين يعرفون القرآن منهم على الحقيقة لا يختلف اثنان منهم في حرف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: آية ٨٢]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: آية ٩] بين الله لنا فيه العقائد، وأصول الحلال والحرام، وطريق الجنة، وطريق النار، وتهذيب النفوس، وتربيتها، ومعالي الأمور، والتنزه عن سفسافها، وبين لنا فيه كيف نستعد لأعدائنا، وكيف نواجههم في حالة الحرب، وحالة الصلح والهدنة، وقد بينه النبي ﷺ بياناً شافياً كافياً، حتى تركها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فعلينا أن نعمل به، ونترك آراء الكفرة الفجرة؛ لأن اتباع نظام الشيطان دلت هذه الآيات على أنه كفر بالله.

واعلموا أن الأنظمة ليست سواء، منها نظام إداري، ومنها نظام شرعي، والأنظمة الإدارية التي لا تصادم الشرع وإنما تجري على المصالح المرسلة لضبط أمور الرعية وأوطانها، فهذا النوع لا بأس به، وقد فعل الصحابة كثيراً منه؛ فإن المسلمين لم يكن عندهم ديوان

للجند تكتب فيه أسماء الجند في زمن النبي ﷺ وأبي بكر، ولَمَّا تخلف كعب بن مالك (رضي الله عنه) في غزوة تبوك لم يعلم النبي ﷺ بأنه تخلف حتى بلغ تبوك؛ لأنه لم يكن عنده ديوان يكتب فيه أسماء الجند، وقام عمر بن الخطاب لما أفضت الخلافة إليه، وكتب أسماء الجند في ديوان؛ فصار جميع الجند المقاتلين مكتوبة أسماؤهم في دواوين، إذا تخلف واحد عُرف الوقت الذي تخلف فيه ووجههم إلى الجهاد، وأعد لكل جهة قدراً معيناً بأسمائه. فهذا نظام عسكري لم يفعله النبي ﷺ، ولا أبو بكر، ولكنه إداري لا يخالف شيئاً من الشرع.

ولم يكن في زمن النبي ﷺ ولا زمن أبي بكر سجن يُوقَف فيه المجرمون حتى يُحقق معهم فيعاقبوا فيه، حتى كان في زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فاشترى دار صفوان بن أمية في مكة، واتخذها سجناً.

ومثل هذا من الأنظمة الإدارية لضبط أمور الرعية مما لا يخالف الشرع، هذا أمر كان يفعله الصحابة، وأجمع عليه جميع المسلمين في قرونهم الماضية، وليس كلامنا عليه، وإنما كلامنا على الذين يتبعون نظام الشيطان في التحليل والتحريم، ويتركون نظام الله، كالذين يقولون: إن المرأة أضعف من الرجل، وصلتهما بالميت واحدة، فلا بد أن يكونا سواء، وتفضيله عليها غلط وحيف عليها!! وكالذين يقولون: إن قطع يد السارق إنه عمل وحشي، لا ينبغي أن يكون في النُّظُم الإنسانية!! وكالذين يقولون: إن الرجم والقتل بالحجارة عمل وحشي، لا ينبغي أن يكون في النُّظُم الإنسانية!! ونحو هذا مما يقوله الكفرة، وأتباع الكفرة، حتى تركوا تشاريع

السماء لآراء الكفرة، وخفيت عليهم الحِكَم.

أما قطع اليد مثلاً الذي يقولون: إنه عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في نظام سماوي، ولا أن يعامل به الإنسان. فإنما هو لجهلهم؛ لأن اليد الواحدة إذا لم تُعَاقَب عقوبة رادعة قد تُقَطِّعُ آلاف الأيادي بسرقتها، وإن الله (جل وعلا) خلق هذه اليد وفَرَّق أصابعها، وأبعد إبهامها عن أصابعها؛ لأنه لو جعل الإبهام قريباً من السبابة لما قدر صاحبها أن يحل ولا أن يعقد، وشد رؤوسها بالأظفار لتكون أداة فعَّالة عاملة في الخير، وفي الإعانة على ما يرضي الله، على غرار: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: آية ٢] فلما مدَّها هذا الخائن الخبيث الخسيس ليأخذ أموال الناس على أخس وجه وأدناه وأردئه صارت هذه اليد في نظر من خَلَقَها وفي شرعه صارت كأنها قذرة نجسة، وإن استمرت بالبدن قَذَّرت ذلك البدن كله ونجّسته، فقُطع عضو فاسد، كعملية تطهيرية؛ ليصح بها بقية البدن من ذلك التنجيس، وتلك الرذيلة، ولتطمئن الناس على أموالها؛ ولذا ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ما يدل على أن الحدود كفارات[١]، وأنه إن قُطعت يده الخبيثة النجسة الفاجرة المجرمة أنه يطهر بذلك بقية بدنه[٢].

وقد يحصل في ذهن طالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: العدوان على المال ذو وجوه كثيرة؛ لأنه قد يكون بالغصب، وقد

---

(١) البخاري في الحدود، باب: الحدود كفارة، حديث رقم: (٦٧٨٤)، (١٢/ ٨٤)، ومسلم في الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها، حديث رقم: (١٧٠٩)، (٣/ ١٣٣٣).

(٢) انظر: الأضواء (٣/ ٤٣١).

يكون بالاختلاس، وقد يكون بالتعدي، وقد يكون بالمطل، وما جاء القطع إلا في نوع واحد منه وهو السرقة، فما الحكمة في أن يكون قطع اليد في خصوص السرقة دون غيرها من الاعتداءات المالية[١]؟!

والجواب عن هذا: أن غير السرقة من الاعتداءات المالية الغالب على حاله أن صاحبه لا بد أن يرى الشهود؛ لأنه لا يكون غالباً في خصوص ومفارقة، وإذا جاء الشهود رفع بهم صاحب الحق إلى من بسط الله يده فاستخرج له حقه، وعاقب الجاني بقدر ما يستحق. أما السرقة: فإن السارق يتحرى أخفى الأوقات، وأبعدها عن اطلاع الناس بحيث لا يشعر به أحد، ولا يطلع عليه أحد، ولو لم يعاقب صاحبها بعقوبة رادعة لَمَا اطمأن أحد على سبيل مالي؛ لحذق اللصوص في الحيل الخفية التي يسرقون بها أموال الناس، والمال شريان الحياة؛ لأن المال هو أساس هذه الحياة الدنيا، فهو شريانها في جميع المجالات، إذ لا عسكرية إلا بالمال، ولا سياسة إلا بالمال، ولا اجتماعية إلا بالمال، ولا ثقافة إلا بالمال، فهو شريان الحياة، والله (جل وعلا) جعل هذه العقوبة لأمرين:

أحدهما: تطهير الجسد الذي أنجسه ذلك الجزء النجس كعملية تطهيرية بقطع عضو فاسد لتصح بقية البدن.

والثاني: لتطمئن الناس على مالها، فإذا قُطعت يد واحدة طهر صاحبها من تلك الرذيلة، وصار إنساناً طيباً بعد أن صار قذراً نجساً، وسَلِمَ المسلمون من أذاه بعد ذلك، ومن أذى غيره؛ لأن من علم أنه إذا سرق قُطعت يده كف عن الناس؛ ولذلك ترى أقل البلاد أن يوجد

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٣٢).

فيها حوادث السرقة هي هذه البلاد ـ نرجوا الله أن يوفق ولاتها إلى ما يحبه ـ وإنما ذلك بفضل الله ثم بفضل قطع يد السارق، وإن الإحصاءات العالمية إذا أُحصيت تجد آلاف حوادث السرقة بل ملايينها في كل محل، وأقل ما يوجد فيه هذا المحل، الذي يُقام فيه هذا الحد من حدود الله؛ وذلك مما يبين أن حكمة الله في تشريعه هي الحكمة الكفيلة للمخاليق بجميع مصالحهم.

ولا يسعنا في الوقت أن نتبع هذه التي ينكرون فنُظْهِر حِكَمَها الواضحة بفلسفة عقلية لا تخفى على أحد، كتعدد الزوجات، وكتفضيل الرجل في الميراث، وكالرجم، وما جرى مجرى ذلك، فإنها أحكام عادلة في تشريعات سماوية، وكمسألة الرق، إلى غير ذلك من المسائل، فهي في الحقيقة من أبرز المسائل وأظهرها. ومن أشد ما ينكره الفجرة على الإسلام: مسألة الرق، وهم في الحقيقة يرتكبون أعظم منها!! وسنبين حكمتها تنبيهاً بها على غيرها[1]. وإنما أوجب الإسلام الرق لأن الله خلق هذا الإنسان وأمره أن يكون إعانة وعضواً صالحاً في المجتمع ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٦] وقد وضع الله نظاماً أراد به الخير لخلقه، هو نظام السماء الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ، يريد للناس إذا اتبعته أن يسودهم العدالة، والطمأنينة، والرخاء، والمساواة في الحقوق، إلى غير ذلك من أنواع الخير، فقام الكافر واستعمل جميع نعم الله في كل ما يسخط الله، وخرج على نظام السماء ليقلب الحكم السماوي إلى غيره!! ومعلوم أن كل دولة من هذه الدول التي تنكر الرق لو أَغْدَقَت النعم على رجل منها، ثم تمرد عليها وحاول إسقاط حكمها، وقَلْبَ

(١) انظر: الأضواء (٣/ ٤٢٤)، (٧/ ٤١٩).

نظام الحكم، ثم تمكنت منه أن تقتله شر قِتْلَة فالكافر تمرد على نظام مَنْ خَلَقَه، واستعمل نعم الله في معصية الله، يريد بذلك قَلْبَ نظام حُكْم السماء، لعدم رضاه بنظام السماء، فأصحاب الدولة الإسلامية الذين هم وكلاء الله في أرضه، ويستعملهم في طاعته؛ لينفذوا ما يريد من خير، وينهون عما ينهى عنه من شر قاتلوا هذا الكافر قتالاً مريراً، فبعد أن أمسكوه كان لهم أن يقتلوه؛ لأنه كان عدواً لهم يريد أن يقلب نظام السماء، فأَمَرَ من خَلَقَه بِقَتْلِه قِتْلَةً دون قِتْلَة، وهي أنه طرده عن مرتبة الإنسان إلى مرتبة تَقْرُب من مرتبة الحيوان، بل هي مرتبة الحيوان؛ لأنه يباع، ويُشرى، ويُوهب، مع أنه لم يقتله من الدنيا، بخلاف الدولة التي تنشر الكفر لو تمكنت من المتمرد عليها الذي يريد قلب نظامها لشنقته وقتلته شر قِتْلَة!! فالله أمر بِقَتْلِه قِتْلَةً دون قِتْلَة، وأنه تُنزل منزلته عن درجة الإنسان الكامل إلى درجة الحيوان، ويبين حقوقه كاملة، فيأمر سيده بالإحسان إليه، وألا يكلفه من العمل إلا ما يطيق، وإن كَلَّفه أعانه.

نعم، هنا يبقى سؤال: وهو أن يقول طالب العلم: ما دام كافراً متمرداً على نظام السماء فَقَتْلُه قِتْلَةً دون قِتْلَة هذا أمر معقول، ولكن إذا أسلم وصار أخاً لنا يصلي معنا في المساجد، ويصوم معنا رمضان، ويعبد الله معنا، فما الحكمة إذاً وما المُسَوِّغ بأنَّا نشتريه، ونبيعه وقد زال الموجب المُسَوِّغ لذلك؟

والجواب عن هذا: هي قاعدة معروفة لدى جميع العقلاء، وهي أن الحق الثابت لا يرفعه الحق اللاحق، فالمجاهدون عندما وضعوا عليه أيديهم وهو كافر ثبتت لهم ملكيته، فلما أسلم استحق رفع الملكية، ولكن كان حقه متأخراً، فقُدم عليه الحق السابق،

وتقديم الحق السابق على الحق المتأخر أمر يقرُّ به جميع العقلاء، نعم لطالب العلم أن يقول: إن كان هذا الحق قبل هذا الحق، والحق الأخير لا يرفع الحق الأول، لكن يجدر بالمسلم أن يُعتق أخاه، ويُسقط حقه الأول لحق أخيه الأخير!!

فنقول: نعم بهذه جاء القرآن، ورَغَّب المؤمن بعتق أخيه، وأنه يعتق كل عضو منه بعضو منه، وفتح الأبواب الكثيرة للعتق: من كفارة الأيمان، والظهار، وغيره، إلى غير ذلك، فهذه حِكَم الله في تشريعه لا يضل عنها إلا من خذله الله، وجعله كالخفاش.

ومعنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أي: قد أكثرتم من إغواء الإنس، وإضلالهم باتباعهم تشاريعكم ونُظُمكم، وقد يُضِلُّون لو لم تتبع تشريعهم، فيُضِلُّون المسلم الذي هو على تشريع السماء بأن يزينوا له المعاصي كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، ويتبعهم في ذلك، ويغوونه بذلك مع أنه لم يكفر، ولم يقر بتشريع غير تشريع الله؛ لأن الذي يشرب الخمر، ويزني، ويسرق ــ والعياذ بالله ــ إن كان يعتقد أن ذلك حلال فهو كافر متبع نظام الشيطان داخل في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: آية ٩] أما إذا زين له الشيطان الزنى، والسرقة، وهو يعلم أنه مرتكب خسيسة، وأنه فاعل أمراً حراماً، وأن هذا لا يجوز، فهذا لا يخرج عن دين الإسلام، بل هو مسلم من عصاة المسلمين، مرتكب كبيرة تُرجى لهم التوبة. والشياطين قد يستكثرون من الآدميين بالنوعين، يستكثرون باتباع تشاريعهم كما هو جار الآن في أقطار الدنيا، ويستكثرون بتزيين الشهوات، كالزنا، والسرقة، والمعاصي ــ والعياذ بالله ــ مع أنه مسلم. وهذا معنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾

[الأنعام: آية ١٢٨] ثم إن أولياءهم من الإنس، والمراد بأوليائهم: هم الذين كانوا يتبعون تشريعهم في الدنيا، أو يطاوعونهم فيما زينوا لهم من المعاصي كالزنى، وشرب الخمر، وما جرى مجرى ذلك. هؤلاء أولياؤهم؛ لأنهم يوالونهم، هؤلاء يوالونهم في التشريع، وهؤلاء يوالونهم في الطاعة، والفاجر ولي الفاجر، والكافر ولي الكافر، والمؤمن ولي المؤمن.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] معناه: يا خالقنا ومدبر شؤوننا، ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] الاستمتاع: هو التمتع، والتمتع في لغة العرب: الانتفاع، وقد انتفع بعضنا في دار الدنيا من بعض.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أما انتفاع الإنس بالشياطين: فهو أنهم يدلونهم على لذات الدنيا الحرام، ويزينونها لهم، فيستمتعون بالزنا، والتلذذ بالنساء الجميلات زنا، وبشرب الخمر، بقتل الأعداء ظلماً، حتى يتشفوا ويشفوا غيظهم، ومن جنس المظالم التي يزينونها لهم ينتفعون ويتمتعون بها في الدنيا. وأما انتفاع الشياطين: فهو أنهم يكونون سادة مطاعين؛ لأن لذة الطاعة والرياسة أمرٌ عظيمٌ، أكثر من لذة ما يناله ذلك. وكان بعض العلماء[1] يقول في انتفاع الإنس بالجن، والجن بالإنس: إنه كان قبل الإسلام إذا نزل الرجل بواد في الليل، وخاف من الجن قال: أعوذ بسيد هذا الحي من سفهاء قومه. فيعيذه ذلك السيد، فينتفع الإنسي بأن كبير الشياطين منعهم من الدنو، وينتفخ كبير الشياطين،

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ١١٦)، القرطبي (٧/ ٨٤)، ابن كثير (٢/ ١٧٦)، البحر المحيط (٤/ ٢٢٠).

لأن الله ميّز الذين وعدهم بالنصر، ميّزهم بصفاتهم الكاشفة، قال في الذين وعدهم بالنصر، ميّزهم في سورة الحشر تمييزاً كاشفاً: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ من هم الذين وعدهم الله بالنصر؟ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: الآيتان ٤٠، ٤١] أما الذين إذا مكن لهم في الأرض غيروا معالم الدين، وضيّعوا الشرع، ووضعوا المذاهب الهدامة، وأضاعوا ما في الإسلام من أخلاق، وغيروا معالم الدين، وجاؤوا بالفساد والطرق الملحدة المستوردة، هؤلاء ليس عندهم وعد من الله بنصرٍ البتّة، ومثالهم مثال العامل الذي عاقده رجل ليعمل له فامتنع من أن يعمل، ثم لما جاء الوقت جاء لصاحب العمل، وقال: أعطني أجرتي. قال: كيف تطلب مني أجرتك وأنت لم تعمل شيئاً؟ أنت رجل مجنون!! فهؤلاء مثل هذا يعصون الله ويناصبونه بالعداء، ويغيّرون معالم دينه، ويتحاكمون إلى الطاغوت، ثم يقولون: نحن مؤمنون ينصرنا الله!! هذا جنون وهَوَسٌ وقلب للحقائق. فالمؤمنون الذين ينصرهم الله هم الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا دينه وشرعه، وعملوا بنور كتابه، كما قال هنا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ قال بعض العلماء: اتقوا تحريفه وحمله على غير معانيه. وقال بعض العلماء: اتقوا الله واجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه باتباع هذا القرآن العظيم(١). وعلىٰ كل حال فمتبع القرآن مُتّقٍ. فقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ كالعطف المؤكد لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٢٣٩)، القرطبي (٧/ ١٤٣).